

ظاهرة التخلف : المفهوم، الأشكال، الأسباب و المظاهر

إسهام مالك بن نبي نموذجاً

د. طاهر سعود - جامعة سطيف - 2 -

تمهيد:

شغلت قضية التخلف الحضاري -كقضية مركزية من قضايا الفكر الإسلامي الحديث- اهتمام العديد من المفكرين والباحثين المسلمين ف تراكت نتيجة لذلك و طوال العقود السابقة إنتاجات معرفية متنوعة، تناولت بالدراسة والتحليل جوانب مهمة من هذه الظاهرة ، كما قدمت دراسات وانتقادات على بعض المسالك التنموية والتحديثية التي اتبعت هنا أو هناك قصد مبارحة وضعية التخلف واللاحق بالدول المتحضرة ، فنبهت إلى إمكانات الإخفاق والفشل، وطرحت بدائل وتصورات ذات قيمة علمية وعملية تحتاج اليوم إلى نفخ الغبار عليها ، ومحاولة مقاربتها ودراستها وتقييمها قصد الاستفادة منها. ومن بين هذه الإنتاجات المعرفية الإسهامات المتميزة التي قدمها المفكر الجزائري مالك بن نبي التي اخترنا أن تكون محورا لدراستنا هذه المعنونة بـ"ظاهرة التخلف إسهام ابن نبي نموذجاً".

1- طبيعة مشكلة التخلف:

عندما نستخدم لغة علم الطب فإننا نصطلح على الحالات غير السوية التي تصيب الأجسام البشرية بالمرض، وبقدر ما تكون هذه الحالات غير السوية خطيرة بقدر ما تستدعي دقة وحذرا عند العلاج. إذا صح هذا في نطاق الكون المادي والحياة البيولوجية فإن القضية تغدو برأي مالك بن نبي أكثر صحة في نطاق الكون الاجتماعي؛ أي في نطاق الحياة الاجتماعية؛ إذ ينبغي عند تعاملنا مع المسائل الاجتماعية الضبط والحذر ، فالتخلف كظاهرة اجتماعية هو ظاهرة مرضية تستدعي أن نسلك نحوها مسلكا خاصا، وذلك بأن نضع نصب أعيننا المرض بالمصطلح الطبي لكي تكون لدينا عنه فكرة سليمة، لأن الحديث عن المرض أو الشعور به لا يعني بداهة "الدواء".

لقد تعاملت الدوائر العلمية -كما بين مالك بن نبي في العديد من دراساته- مع التخلف كمشكلة، وخلف ذلك مؤتمرات ودراسات وتراثا نظريا مكتفا... لكنها كانت في طابعها العام دراسات جزئية:

- تعالج المرض والجهل هنا. والفقر والبؤس هناك.
- وانعدام التنظيم واختلال الاقتصاد أو السياسة في مناسبة أخرى ... ولكن ليس فيها تحليل منهجي للمرض، فبقي كل ينظر إليها من منظار اختصاصه:
- فالسياسي ينظر إليها على أنها مشكلة سياسية.

- والاقتصادي يعالجها من حيث كونها مشكلة اقتصادية... وقد نتج عن هذا التعامل التذريري (Atomisme)، أن المرض تتضاعف وتيرته يوما بعد يوم دون أن يجد له حلا.

لقد كانت هذه المظاهر (الفقر، الجهل...) أعراضا للمرض شبه مالك بن نبي تعاملنا معها مثل ذلك الطبيب الذي يواجه حالة مريض بالسل الجرثومي فلا يهتم بمكافحة الجراثيم التي تسببت في هذا المرض، وإنما بهيجان الحمى لديه؛ أي أنه ينجذب نحو الأعراض بدل البحث عن الأسباب. فالمجتمعات المتخلفة (وفي مقدمتها المجتمعات الإسلامية طبعاً) تتفاعل مع الأعراض فتعاطي هنا حبة ضد الجهل، وقرصاً هناك ضد الاستعمار، وعقاراً للفقر في مكان آخر، و تنشئ في بقعة قاصية مصنعا، ولكنه لم تشف من مرضه، من مرض التخلف¹، فما المشكلة إذن؟

إن الدراسات التي قدمها مالك بن نبي في هذا الصدد تتمحور حول هذا السؤال المركزي، وتنطلق مما يمكن أن نسميه فرضية عامة (Général hépothésis)، سعى إلى البرهنة عليها من خلال استقراره للواقع التاريخي، والواقع الاجتماعي المعيش.

هذه الفرضية -التي لم يمل من التأكيد عليها- هي أن "مشكلة كل شعب هي في جوهرها مشكلة حضارته، ولا يمكن لشعب أن يفهم أو يحل مشكلته ما لم يرتفع بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو تهدمها"².

وبالتالي فإن المشاكل العديدة التي نطلق على مجموعها مصطلح (التخلف) هي في الواقع تعبيرات عن مشكلة واحدة تواجه كل بلاد متخلفة؛ أي أنها مشكلة حضارة، بشرط ألا تفهم عبارة حضارة بمعناها المتداول لدى المختصين في الأنثروبولوجي الذين يعتبرون كل شكل من أشكال الحياة البشرية نوعاً معيناً من الحضارة مهما غرق هذا الشكل من الحياة في البدائية، ومهما كان بسيطاً، وإنما أن تضيق هذا المفهوم في الحدود التي تتعرف فيها الحضارة كحالة إنسانية على أنها ذلك الشكل النوعي الخاص بالمجتمعات المتقدمة، أي على أنها "مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح لمجتمع معين أن يقدم لكل فرد من أفراده في كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة، المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه"³.

2- مفهوم التخلف:

رغم الصعوبات التي تكتنف مادة تحديد المفاهيم في نطاق المباحث الإنسانية إلا أن مطالعة إسهامات مالك بن نبي التنظيرية حول إشكالية التخلف كظاهرة مرضية تعاني منها دول نصف الكرة الجنوبي، أو دول محور طنجة-جاكرتا تكشف لنا عن جملة من التحديدات والتعريفات يمكن أن نجملها فيما يلي:

- 1- يعتبر مالك بن نبي التخلف مفهوماً من المفاهيم الجديدة التي أضافتها إلى عالم الأفكار العلوم النظرية والتطبيقية التي خلفتها الحرب العالمية الثانية⁴، كعلم اجتماع التنمية والاقتصاد والعلوم السياسية...

2- "التخلف هو الحالة الاجتماعية التي يكون عليها إنسان ما قبل الحضارة، الإنسان الذي يضع مشكلاته في حدود الأشياء"⁵.

3- التخلف "هو مظهر من مظاهر مشكلة الإنسان الذي لم يتعلم طريقة استعمال وسائله الأولية التي هي التراب والزمن بصورة فعالة، أو هو قد نسي ما تعلمه من هذا الاستعمال، مع ملاحظة أن فعالية الإنسان بالذات هي التي تقوم بتحديد بقية العوامل الأخرى"⁶.

4- "النمو والتخلف على المستوى الجماعي، يقابله الفعالية وعدم الفعالية على المستوى الفردي وعلى هذا فالتخلف هو نتيجة أو حاصل ضروب اللافعالية الفردية، فهو فقدان للفعالية على مستوى مجتمع معين"⁷.

5- "التخلف مفهوم يعبر عن وضع الفرد المحروم من الضمانات الاجتماعية في نطاق وحدة تاريخية اجتماعية"⁸.

6- التخلف مفهوم يعبر عن وضع اجتماعي خاص بالشعوب الأفروآسيوية، يمكن تصويره ببعض الأرقام كمتوسط الدخل الفردي من حيث قيمته الاجتماعية لا المالية؛ أي بما يكفله هذا المتوسط من ضمانات اجتماعية في وطن معين، والذي لو قمنا بتوزيعه على الخريطة لحدد لنا قارتين، قارة يسر وقارة عسر، فكلمة عسر هي التعبير الأدبي على الواقع الاجتماعي الذي يعبر عنه مصطلح التخلف، وعلى هذا فالمجتمع المتخلف هو ذلك الذي لا يقدم الضمانات الاجتماعية لأفراده ولا يمكنه أن يقدمها"⁹.

7- التخلف "هو نقص في الوسائل على الصعيد الاقتصادي، ينوء حمله الاقتصادي بجانب سلبي جديد من الوجهة النفسية، هو سوء الانتفاع بالوسائل"¹⁰.

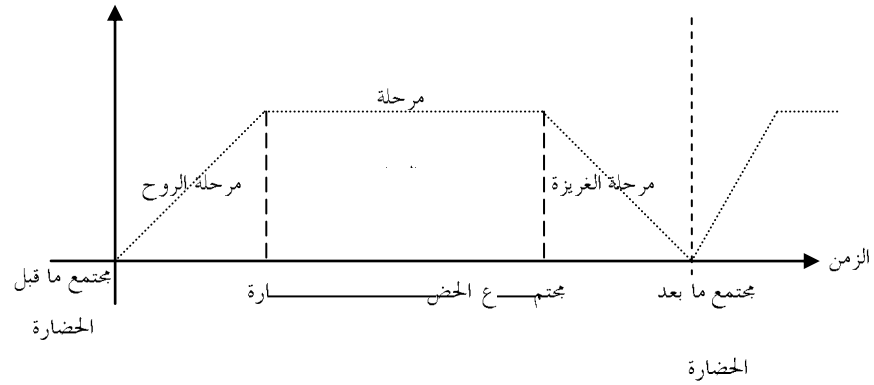
8- "المجتمع المتخلف ليس موسوما حتما بنقص في الوسائل المادية (الأشياء)، وإنما بافتقار للأفكار يتجلى بصفة خاصة في طريقة استخدامه للوسائل المتوفرة لديه بقدر متفاوت من الفاعلية وفي عجزه عن إيجاد غيرها..."¹¹.

...وحتى نفهم هذه التحديدات المتنوعة التي قدمها ابن نبي حول مفهوم التخلف ينبغي أن نستوعب حقيقة مهمة تحفل بها دراساته، هذه الحقيقة هي أن الإشكال الحضاري في المجتمع المتخلف هو الإشكال الرئيسي، فالحركة الهادفة لأي مجتمع إنما تبغي الوصول إلى الحضارة، تلك التي تحقق للإنسان كل الشروط المادية والمعنوية بما يتيح له الحصول على الضمانات الاجتماعية والرفاه المعيشي عبر مراحل حياته، منذ أن يكون طفلا إلى أن يصير شيخا. وحتى يصل المجتمع إلى هذه الغاية لابد أن يؤلف بين عناصره الحضارية الموجودة في حوزته (الإنسان والتراب والزمن). ضمن هذا السياق التحليلي إذن يمكن أن نفهم مختلف التحديدات التي قدمها حول التخلف كظاهرة اجتماعية مرضية تخبرها المجتمعات التي تعيش على طول محور طنجة-جاكرتا، هذه التعريفات التي قد تبدو لنا في ظاهرها متباعدة ليس بينها صلة.

فلبن نبي عندما يعتبر التخلف مفهوما من المفهومات الجديدة التي أضافتها إلى عالم الأفكار العلوم النظرية والتطبيقية التي خلفتها الحرب العالمية الثانية، فإنما يقصد المفهوم كمفهوم، أما حالة التخلف كوضع اجتماعي وكحقيقة سلبية يعيشها الإنسان، فهي حالة تاريخية يمكن أن نرقبها في حركة التعاقب الدوري للحضارات كما شرحها في نظريته حول دورة الحضارة. فقبل أن يلج مجتمع ما إلى طور الحضارة والنمو، يكون في وضع سابق على الحضارة (أنظر الشكل 1)*؛ أي أنه لا يزال في عمر الطفولة الإنسانية، وفي هذه المرحلة يفرض الشيء طغيانه على الإنسان بسبب ندرته؛ بحيث يطرد الفكرة من وعيه فكل أحكامه وتحركاته هي انعكاس لنفسية تضع الشيء في مرتبة القيمة الأولى.

شكل رقم (1) يوضح مراحل الدورة الحضارية

مقياس القيم النفسية والاجتماعية



وعندما يؤكد ابن نبي على أن التخلف هو مظهر من مظاهر مشكلة الإنسان الذي لم يتعلم استخدام وسائله فإنما هو يشير هنا إلى الإنسان السابق على الحضارة، الإنسان الذي يعيش في مجتمع بدائي ولم يعدل بطريقة محسنة المعالم التي تحدد شخصيته منذ كان¹²، فهو لم يزل ساكنا لم يتحرك لإنشاء حضارة مستغلا التراب والزمن. ويشير أيضا إلى إنسان ما بعد الحضارة بقوله "أو هو نسي ما تعلمه من هذا الاستعمال" بعدما كفت الرياح التي منحتة الدفعة الأولى - ليرتقي مدارج الحضارة- عن تحريكه¹³، وبعدها تعرض له من طوارئ التاريخ التي أبعدته عن مرحلة الحضارة، وأسقطته في وهدة الغريزة التي قادته أخيرا إلى التخلف والانحطاط؛ حيث غدت العناصر الحضارية الأساسية (التراب والزمن) خامدة ومعطلة ليس بينهما صلة مبدعة، لأنه هو ذاته (أي الإنسان) فقد فعاليته بعدما فقدت المسوغات والمبررات التي كانت تمدّه بالحركة وطأتها على كيانه.

وما دام الإنسان والمجتمع في تفاعل تكاملي مع مقتضيات الفكرة الدينية (Le catalyseur) التي تهذب طاقة الفرد والمجتمع وتمده ما بالمسوغات التي تشدّ فعاليته ما الإنجازية، فإن خط الحضارة سيبقى صاعدا، وعندما يبدأ الانفصال بين الفكرة وسندها المحسوس (الإنسان)، يبدأ المجتمع في التدرج نحو اللافعالية إلى أن يسقط أخيرا في مهوأة التخلف والانحطاط الحضاري.

فالنمو في المستوى المجتمعي هو ثمرة الفعالية الفردية، والتخلف هو ثمرة اللافعالية الفردية؛ حيث إنه لا يفقد مجتمع ما فعاليته إلا عندما يفقد مجموع أفراده فعاليتهم ؛ أي عندما يصبح المحيط الاجتماعي الذي يضمهم سلبيا لا تشع فيه قيم الروح والعقل ، ولعل المعادلة التالية توضح ذلك:

$$\text{فرد فعال}_1 + \text{فرد فعال}_2 + \text{فرد فعال}_3 + \dots + \text{فرد فعال}_n = \text{مجتمع فعال (أي مجتمع متحضر).}$$

والعكس صحيح: فرد كل₁ + فرد كل₂ + فرد كل₃ + + فرد كل_n = مجتمع متخلف* .
إن الفعالية كما يذهب إلى ذلك مالك بن نبي تنمو تدريجيا مع تعقد المصلحة، كما أن النشاط الاجتماعي لأي مجتمع يتصاعد وينمو بقدر ما يكون نشاط أفراده موجها لغاية مجتمعية ؛ أي لسد حاجات غير فردية زعبر عنها بالمصلحة العامة¹⁴. وما دام المجتمع قد فقد فعاليته فإن إنتاجه الاجتماعي سيغدو بسيطا أو منعما، وهكذا لا يمكنه أن يحقق لأفراده أي قدر من الضمانات الاجتماعية، ولا يمكنه أن يقدمها لأن إنتاجه غير كاف.

وقد أحسن ابن نبي التعبير عن هذه الأوضاع الاجتماعية مستخدما في صيغ رياضية ثنائية الحق والواجب كقيمتين أخلاقيتين يمكن أن نقيس على أساسهما مستوى تقدم المجتمع أو تخلفه**؛ حيث يرى أنه لو اصطالحنا على أن مفهوم الواجب هو ما يعطيه الفرد للمجتمع، وأن مفهوم الحق هو ما يأخذه منه، وأن الحق والواجب يمثلان قيمتين مختلفتي العلاقة على طرفي الصفر (0)

$$+\infty \longleftarrow 0 \longrightarrow -\infty$$

فإننا يمكن أن نصوغ العلاقة الرياضية التالية: **حق + واجب $\longleftrightarrow 0$**
ولو أردنا نقل هذه العلاقة الجبرية الأخلاقية إلى لغة أكثر واقعية وقريبة من واقعنا المعيش فإننا نستعير مفهومين يعبران عنها من حقل الاقتصاد وليكونا الإنتاج والاستهلاك مثلا، فإذا كان الإنتاج هو ما يعطيه الأفراد للمجتمع والاستهلاك هو ما يأخذه منه فإن العلاقة الجبرية تصبح كالتالي:

$$\text{إنتاج} + \text{استهلاك} \longleftrightarrow 0$$

ولا شك أن هذه المعادلة المتراحة تقبل ثلاثة احتمالات:
الاحتمال الأول: الإنتاج = الاستهلاك بمعنى أن الحق = الواجب؛ أي إن قيمة ما يعطيه الفرد للمجتمع يساوي قيمة ما يأخذه منه.
والاحتمال الثاني: الإنتاج < من الاستهلاك، بمعنى أن الواجب < الحق؛ أي إن قيمة ما يعطى للمجتمع أكبر من قيمة ما يؤخذ منه.
أما الاحتمال الثالث: الإنتاج > من الاستهلاك أو بطريقة أخرى الاستهلاك < من الإنتاج، بمعنى أن الواجب > من الحق، أي إن قيمة ما يعطيه الأفراد للمجتمع أصغر من قيمة ما يأخذه منه.

ومما لا شك فيه أن لكل صيغة من هذه الصيغ الرياضية الثلاث تأثيراً على نمط المجتمع وحاضره ومستقبله. فإذا تقرر اختيار المجتمع وغلب قيمة الحق فإن معادلته الأخلاقية والاجتماعية تكون سلبية؛ أي أنه مجتمع ينهار ويتحجر حتى يصبح أثراً بعد عين. أما إذا تعادلت قيمة الواجبات مع قيمة الحقوق فإن هذا المجتمع راكد وجامد، والتاريخ يبين لنا أن كل تطور صاعد عرفته المجتمعات اقترن دائماً بتفوق للواجب على الحق، ففائض القيمة (plus-le value) الذي يحققه المجتمع في مختلف ميادين كفاحه هو أمانة التقدم الخلفي والمادي في كل مجتمع يشق طريقه نحو المجد. أما إذا اختار مناهج الصعوبة وغلب قيمة الواجبات على الحقوق فإن محصوله الأخلاقي والاجتماعي يتضاعف فيسجل في ميزان التاريخ كتلاً من النشاط الحي يكون له بمثابة المبرر لوجوده والمحفز لبقائه.

ويحصر مالك بن نبي التخلف في نطاق وحدة تاريخية اجتماعية، أو في نطاق ما يعبر عنه بمحور طنجة-جاكرتا؛ أي الرقعة الجغرافية التي تشمل الشعوب الأفروآسيوية، تلك الشعوب التي لا يزال بعضها في مرحلة ما قبل الحضارة، وبعضها الآخر خارج من الحضارة، وفي كلتا الحالتين يعيش إنسانها محروماً من الضمانات الاجتماعية التي لا يتيحها إلا المجتمع الذي يحقق حضارة، مثل ذلك الذي يمتد على محور طوكيو-واشنطن.

أما التعريفان الأخيران وإن كانا يتجهان وجهة اقتصادية، إلا أنهما يؤكدان على مؤشرين هاميين، هما: النقص في الوسائل، والافتقار إلى الأفكار؛ حيث يرى أنه إذا كان المؤشر الأول عاملاً سلبياً في بعض الأحيان، فإن الغلبة تبقى للعامل الثاني؛ أي للفقر في الأفكار، لأن مجتمعاً يفتقد الفكرة ويمتلك الوسيلة والشئ يسير نشاطه مضطرباً أعمى يفتقد الوجهة ويخطئ الهدف. وعندما يقر مالك بن نبي الأولوية للأفكار على الوسائل فإنما ينطلق من واقع التجربة؛ حيث يضرب مثلاً باندونيسيا والعراق اللذان يمتلكان أكثر الأراضي خصوبة في العالم، ورغم ذلك لم يتمكنوا من تحقيق الإقلاع. ويضرب مثلاً آخر بألمانيا التي افتقدت تجربة إقلاعها بعد الحرب العالمية الثانية للوسائل؛ حيث انطلقت من الصفر لكن غناها الفكري أتاح لها بعد عشر سنوات أن تصبح قوة مركزية. فقيمة الفكرة تتمثل في التوجيه الذي تمارسه على الأشخاص والأشياء حتى يحصل الانتفاع مما هو متاح، وتقل عوامل التبدد وسوء الانتفاع.

3- أشكال التخلف :

يميز مالك بن نبي في دراساته حول ظاهرة التخلف بين شكلين أساسيين منه:

1.3- الشكل الأول: وهو الشكل الطارئ الذي يعزى إلى عوامل عرضية كالنقص الذي ينتاب

الآن أو انتاب في الماضي تطور المجتمعات التي كانت نامية سابقاً، ويضرب مثلاً على ذلك بالمجتمع الإسلامي حتى آخر عهد الدولة الموحدية¹⁵. ويمكن أن نتلمس تحليلاً أكثر لهذا الشكل من أشكال التخلف، برجعنا إلى فكرة الدورة الحضارية، التي يقسم بموجبها مسيرة المجتمعات الإنسانية في ثلاث مراحل:

- مرحلة الروح: التي تدشن عهد الانطلاق والإقلاع الحضاري للمجتمع .
- مرحلة العقل: التي يكون فيها المجتمع في أوج تطوره وازدهاره المادي .
- مرحلة الغريزة: حيث ينكفي فيها المجتمع متقهقرا بسبب الطوارئ التاريخية (كواقعة صفين في الدورة الإسلامية التي قصمت الوحدة الروحية، وتراكت رواسبها حتى قادت المجتمع الإسلامي إلى نقطة الانكسار في المنحنى الحضاري، حيث قذفت به إلى مهاوي التخلف)، ليلج عهد ما بعد الحضارة بكل رواسبه وسلبياته.

2.3- الشكل الثاني: وهو شكل أصيل (أي لصيق بهذه المجتمعات عرفت به منذ وجدت) يرجع إلى عوامل دائمة ومزمنة من الركود، كما هي الحال بالنسبة إلى العوامل التي انتابت حتى هذا الحين حياة السكان الذين يكونون ما يسميه علماء الأنثروبولوجيا بالمجتمعات البدائية (les sociétés primitives)¹⁶، أو المجتمعات الطبيعية ذات النموذج الساكن ذي المعالم الثابتة، كما يطلقه عليها ابن نبي أيضا، ويضرب عليها مثالا بالقبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الاستعمار¹⁷، فهذا النوع من المجتمعات أشبه ما يكون بمجتمعات النمل والنحل التي لم تتغير شروط حياتها ووجودها، فهي مجتمعات تفتقد الحركة وحياتها الاجتماعية دون غاية، فهي تعيش في مرحلة ما قبل الحضارة.

4- جغرافية التخلف:

يرى مالك بن نبي أننا عندما نلقي نظرة فاحصة على المجتمعات المعاصرة في القرن العشرين نجد أنها تختلف في نواح عدة وتتشابه في نواح أخرى، وأن اللافت للانتباه هو ذلك الاختلاف والتفاوت في الفاعلية الذي يطبع نشاط كل منها، فهناك مجتمعات أكثر فعالية من مجتمعات أخرى. وتبعا لذلك فهي تتصرف في تصوره إلى فصيلتين¹⁸:

- 1- **المجتمعات المصنعة:** وهي تلك التي تمتد على نصف الكرة الشمالي.
 - 2- **المجتمعات المتخلفة:** وهي تلك التي تنتظم على وجه التقريب نصف الكرة الجنوبي.
- إن مطالعة الأدبيات السائدة في ساحة الفكر المشتغل بقضايا التخلف والتنمية تقودنا إلى الكثير من التسميات التي حاول أصحابها تقديم تعبير واف يصفون من خلاله الحالة التي تخبرها البلدان التي تعاني وضعية التخلف، وضمن هذا السياق تتداول تسميات ظاهرها الحياد كمصطلح العالم الثالث، أو مصطلح البلدان النامية، أو البلدان المتخلفة... وتتداول تسميات أخرى مشبعة أيديولوجيا كالتعبير الماركسي، البلدان ذات نمط الإنتاج الآسيوي أو الأمم البروليتارية، غير أن مالك بن نبي قد نحت مصطلحا جديدا دخل إلى عالم المفاهيم المتداولة اليوم على نطاق كبير هو **ثنائية محور واشنطن-موسكو** في مقابل **ثنائية محور طنجة-جاكرتا**، هذه التسمية التي تتصنف ضمنها المجموعة العالمية في مجموعتي ن متقابلتين، تلك التي تمتد على خط نصف الكرة الشمالي؛ أي **محور واشنطن-موسكو**، والأخرى التي تمتد على خط نصف الكرة الجنوبي؛ أي **على محور طنجة-جاكرتا**. فالتخلف كحالة اجتماعية يشغل المساحة الممتدة على المحور الثاني.

5- أسباب التخلف:

يرى مالك بن نبي أن الكيان الحضاري يتهاوى عندما تفقد القيم الروحية والفضائل الخلقية تأثيرها باعتبارها قوة جوهرية في تشكيل الحضارات ؛ حيث تتوالى النكسات الاجتماعية وطوارئ التاريخ إلى أن يفقد الفرد همته وتحرر غرائزه التي شرطتها الفكرة الدينية، وتتفكك شبكة المجتمع العلائقية، وتتجمع الأمراض النفسية والاجتماعية فتقود المجتمع إلى حالة من العجز والمرض والسلبية والجمود، يطلق عليها القابلية للاستعمار (La colonisabilité). فالقابلية للاستعمار هي تعبير حي عن الوراثة الاجتماعية السلبية التي ترثها المجتمعات في عصور انحطاطها عبر أشكال من العادات والتقاليد والأفكار ؛ أي عبر ثقافة المجتمع بما تحويه من ركام سالب يتغذى منه الفرد وعلى أساس منه تتطبع سلوكياته وأحكامه. إن مركب القابلية للاستعمار سيغدو عامل تعطيل وركود تثبت من خلاله وضعية التخلف، وهو ما تستغله دوائر ومؤسسات الهيمنة العالمية لضمّن عملية استتباع دائمة، تغذيها دوافع التابع القابل للاستعمار ورغباته، أكثر من محفزات المتبوع (المستعمر أو المهيم) ومغرياته. ورغم أن ابن نبي يخص الإنسان المسلم عند حديثه عن القابلية للاستعمار، فليس معنى هذا أنها ظاهرة خاصة به دون غيره فهو يقدمها كنظرية للعالم المتخلف الذي كان في وقت سابق فريسة للاستعمار الأوروبي، ولا يزال اليوم هدفا للاستعمار الحديث. وهو يؤكد أن هذا السبب (القابلية) هو الذي ينبغي التنبه إليه قصد التخلص منه، وأن نكف عن إلقاء تبعات الإخفاق والفشل والتخلف.. على أسباب وهمية أو شبه حقيقية؛ حيث يقول "وهكذا كلما حاولنا تصنيف مختلف أسباب (الكف) التي تعرقل ضروب النشاط في [العالم المتخلف] والتي تشد تطوره إلى نسق متكئ، و.. تزرع القلق والعجز، وأخيرا الفوضى في حياته، وجدنا أن الأسباب الداخلية التي تنتج عن القابلية للاستعمار هي الأسباب ذات الشوكة والغلب"¹⁹. إن صنوف العطالة التي كثيرا ما تعترض الأعمال الفاعلة، فتقودها إلى الفشل أو نصف النجاح، لا تعزى إلى أسبابها الأصلية التي هي كامنة أولا في ذواتنا، وإنما تعلق على مسميات حتى وإن كانت حقيقية- كالاستعمار، والاستعمار الجديد والإمبريالية- فهي تعيش وتستغل ما هو كامن في أنفسنا من استعداد لخدمتها من حيث نشعر أو لا نشعر، وهنا نلمس تأكيد ابن نبي المهم على " أن هناك حركة تاريخية ينبغي ألا تغيب عن نواظرنا وإلا غابت عنا جواهر الأشياء فلم نرى منها غير الظواهر، هذه الحركة لا تبدأ بالاستعمار بل بالقابلية له، فهي التي تدعوه". وكما ركز مالك بن نبي في تحليله لأسباب التخلف على العوامل الداخلية، فإنه لم يهمل أيضا العوامل الخارجية التي تلعب هي الأخرى- وإن لم تكن بنفس الدرجة- دورا في توليد وتثبيت وضعية التخلف؛ حيث يركز على الدور التعطيلي الذي مارسه الاستعمار على دول نصف الكرة الجنوبي.

فقه كان دور المستعمر خطيرا لأنه هدم المقومات الأساسية التي ينبني عليها أي إقلاع حضاري، فالاستعمار الإنجليزي في مصر مثلاً قضى على تلك الحركة النهضة والتجديدية التي انطلقت في عصر محمد علي باشا، والتي كانت من الممكن لو بقيت الدعم أن تتقل مصر الحديثة نقلة نوعية على طريق النهضة والحداثة. أما الاستعمار الفرنسي الذي ابتليت به مجتمعات الشمال الإفريقي فقد مارس مفعولا تعطيلا، عطل التطور على صعيد هذه المجتمعات وأسلمها إلى تخلف أكثر، فقد انطلق الشعب الفرنسي إلى الأمام بما استفده من ثروات هذه المستعمرات المادية والمعنوية بينما رجعت الأولى إلى الخلف، فكأن التطور الحاصل في المركز (فرنسا) قد عطل نمو الأطراف (المجتمعات المغاربية) نتيجة استنزافه لفائضها الاقتصادي وحجره على مواردها لحسابه. فالتخلف الذي نشاهده اليوم في تطور الشعب الجزائري مثلاً - يؤكد ابن نبي - ما هو إلا نتيجة هذا الاستعمار، بعد أن نأخذ في الحسبان الأسباب الداخلية التي تعود إلى القابلية له*.

6- مظاهر التخلف:

سجل مالك بن نبي جملة من المظاهر المبينة للصورة التي يكون عليها المجتمع في نهاية دورة حضارته؛ أي عندما يدلف إلى مرحلة التخلف والانحطاط، ويمكن أن نجمل هذه المظاهر في:

1.6 - تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية:

إن تطور مجتمع معين مسجل كما وكيفا في شبكة علاقاته الاجتماعية، وتبدأ أعراض التخلف والانحطاط في المجتمع عندما ترتخي خيوط هذه الشبكة في هيئة انفصالات فردية، ثم تتطور هذه الانفصالات إلى أن يسري المرض في الجسد الاجتماعي؛ بحيث يغدو العمل الجماعي الهادف صعبا أو مستحيلا لأن الجهود لا تتصرف هنا لحل المشكلات الواقعية للمجتمع، وإنما يصبح طرحها فرصة لانتفاخ الأنا وتورم الذات. وإذا اعتبرنا الأفكار هي الأساس الذي تنطلق منه عمليات البناء فإن مقدار فاعليتها (الأفكار) متوقف على سلامة شبكة العلاقات، فالعلاقات الفاسدة في عالم الأشخاص لها نتائجها على عالم الأفكار وعلى عالم الأشياء، والسقوط الاجتماعي الذي يصيب عالم الأشخاص يمتد لا محالة إلى الأفكار والأشياء في صورة افتقار وفاقعة²¹.

إن الحضارة تبدأ في الواقع قبل أن تتكون هذه العوالم الثلاثة بينما يتلاشى أثرها والمجتمع متخمر بالأشياء والأفكار والأشخاص عندما تتمزق شبكة علاقاته. وإذا كانت ثروة مجتمع ما مقدرة بقيمة ما يملكه من أفكار، فإن فاعلية هذه الأخيرة مرتبطة بمدى السلامة التي تتمتع بها شبكته العلائقية، فقد تبرز إلى الوجود أفكار ذات قيمة كبرى، لكن السقوط الاجتماعي الذي يصيب المجتمع في هذه الفترة من تاريخه يجعل هذه الأخيرة غير ذات فائدة؛ إذ تظل غائبة عن عالم أفكاره، ولا تجد سبيلها إلى التطبيق، كما حصل لتراث ابن خلدون الذي ظل حروفا ميتة حتى اكتشفته أوربا القرن التاسع عشر²².

2.6- فوضى الأشياء والأفكار:

في المجتمع المتحضر أو الذي بدأ الدخول في مرحلة الحضارة، تظهر وتزايد حاجاته، "فيبدأل جهده في محاولة إشباعها وينظم استعاراته مع المجتمعات السابقة له في هذا المضمار، فيقبس بصورة ما (حاجة) ولكنه يبدع الوسيلة التي تشبعها، فلا تدخل فكرة أو شيء ما إلى عالم أفكاره وأشياءه إلا بعد اختبار متعمد" ²³، لكن هذا الوضع ينقلب في المجتمع الذي دخل إلى مرحلة التخلف الحضاري، فتختل الموازين وتحصل الفوضى، فيسترد الشيء سيطرته على الإنسان ويرتد المجتمع إلى مرحلة من الصبائية، تستمرى السهولة وتتجذب نحو الأشياء . ومادام المجتمع قد افتقد شبكة علاقات توازن نشاطاته وتنظم عوالمه الثلاثة فإنه يغرق في فوضى الأشياء والأفكار، فلا يستطيع بالتالي ممارسة عمليات الاصطفاء لما يرد عليه، فيخضع وجوده لضرورات مزيفة يحاول إشباعها بوسائل قد تقصر عن قدراته، وهو ما يضاعف مديونية الحضارية.

3.6- الشيئية والتكديس:

" التكديس ظاهرة اجتماعية تظهر في المجتمعات في مراحل تخلفها، لأنها في هذه المرحلة لا تفكر ولا تنظم أعمالها طبق أفكار وقوانين وإنما تكديس الأشياء " ²⁴، فالكلف بالشيء الذي يسترد سلطته يطرد الفكرة تماما من وعي الفرد والمجتمع، وحينما تفقد الفكرة ويكتفي المجتمع ببعدي الشيء والشخص فإن ثقافته تغص بعالم من الشيئية وتتمحور حول الأشياء ؛ بحيث تحتل هذه الأخيرة القمة في سلم القيم ²⁵. تتمظهر هذه الشيئية في النطاق الاجتماعي والاقتصادي والفكري...في أشكال تعكس المستوى الحضاري المتخلف الذي ينتكس إليه مجتمع ما.

- ففي الميدان الإداري لا تقاس درجة الموظف مثلا بكفاءته وإنما بعدد الأجهزة (تلفونات، مكيفات، فاكسات...) التي تحت يده سواء استعملها أم لم يستعملها.
- والمكان الذي يشغل عددا معيناً من الموظفين يوضع فيه أضعاف هذا العدد بطريقة تزود بها مشكلة البطالة العادية مع بطالة مقنعة تعبر عن استحداث لموظفين دون أن تستحدث وظائفهم ²⁶.
- والعقلية الشيئية والتكديسية تقود المجتمع إلى سوء الانتفاع بما لديه من إمكانيات لأنه لا يدرك قيمتها فتبقى معطلة، ويستهو به كل وافد حضاري حتى وإن كان غير ذي قيمة.
- وفي الميدان الاقتصادي لا يلتفت المجتمع إلى ما بين يديه من طاقات بشرية يمكن أن يستثمرها في نطاق مشاريعه الاجتماعية، بل تجذبه رؤوس الأموال الخارجية والقروض الأجنبية.

- وليس الميدان الفكري والأدبي ببعيد عن هذه النزعة السالبة ، وانعكاساتها تبدو واضحة في الحياة الثقافية والتعليمية فرسائل التخاطب التي نتواصل بها هي نموذج فريد للتكديسية ؛ إذ تبتدئ بعد الحمد لله بعشرة أسطر من الديباجات التقليدية والألقاب التفخيمية ²⁷.

- **والمناهج التعليمية** هي أيضا أنموذج للتكديس الذي يكتفي بصب المعلومات وحفظها واستظهارها.

4.6-اللافعالية:

في مجتمع تحط فيه الدوافع ، وتفقد فيه مسوغات الاندفاع إلى العمل والإنجاز الحضاري، تصبح قيمة الفعالية شيئاً ضامراً لا معنى له لأن الدوافع التي كانت تحرك الجهد الإنساني فقدت سلطتها على **العقل والضمير واليد**، ولأن القنوات التي كانت تضمن حركيتها قد تجمدت ، فشبكة العلاقات التي أثمرها المبدأ الأخلاقي وحفظت للمجتمع تماسكه وفعاليته، قد تلاشت عندما أصبحت عناصر المجتمع (الأشخاص) ذرات متافرة.

5.6- فقدان التوازن الاجتماعي (أو مشكلة التكيف):

إن العالم الثقافي الذي يرثه المجتمع في المرحلة التي يخرج فيها من الحضارة عالم مضطرب يفتقد إلى الانتظام والتوازن بين عناصره ومكوناته، فهو ركام من أفكار ميتة خذلت أصولها ، وفي المجتمعات التي خضعت للفعل الاستعماري يضاف إلى هذا الركام السالب ركام آخر من الأفكار القائلة التي يستوردها المجتمع ويمتصها دونما تصفية أو انتقاء أخذاً بقاعدة المغلوب مولع دائماً بتقليد الغالب.

في ظل هذا العالم الثقافي المأزوم تنتشر وحدة المجتمع الفكرية فيغدو عوالم متفرقة ؛ حيث يتشبث بعض أفراد الموروث القديم حتى وإن كان ميتاً، وينجذب بعضهم الآخر لكل مستحدث حتى وإن كان قاتلاً، وتلك هي ظاهرة الأفكار الميتة والأفكار القائلة²⁸. استلاب تراثي من جهة واستلاب حدائي من جهة مقابلة. ولو حللنا حياة هذا المجتمع لوجدنا فيها ألواناً من النزعات والاستعدادات المتنافرة، حتى لأنه نمط لمجتمعين متراكبين أحدهم يمثل الوجه التقليدي والتاريخي، والثاني يمثل الوجه المستحدث الذي يريد صنع تاريخه من نقطة الصفر²⁹.

إن الوحدة الثقافية التي على أساسها يشع المجتمع في التاريخ ويحفظ كيانه، تصبح مثار جدل، فيقود الاختلاف لا إلى التنوع والإثراء وإنما إلى التلاخي والنزاع ، وهذه من أخطر المشكلات التي تعجل باندثار المجتمعات أو اطراد تخلفها، وفي هذا الصدد كتب مالك بن نبي يقول "...وإننا لنشاهد عدم الاستقرار هذا في أنفسنا وفي تصوراتنا للأشياء، حين تختلف باختلاف الناظرين إليها، فهناك نظرة ذلك الشاب الذي يتغذى بثقافة ضيقة قانعة بضيقها، فهو يرى أن سعادة البشر قد ابتدأت مع القرن التاسع عشر بانتشار ما يسمى بالأفكار التحررية، وهناك من يشك في كل شيء ويرى المدنى معركة اقتصادية، وأن تخليص الشعب لن يتأتى إلا بحيلة اقتصادية...أو بكارثة مالية...وهناك نظرة الشاب (السلفي) المملوءة بذكريات الماضي، فهو يظن أنه يغير نظام المجتمع بتطهير لغته وبتطبيق النحو والصرف، وهناك النظرة المخدرة التي يرى صاحبها أن المثل الأعلى للمدني يبرق في قعر كأسه ويطمع في جو الخمرة، ومنا من يرى نجاة الشعوب في تحرير النساء ويظن أنه ملك بيديه المدن يقي إذا فاز بامرأة عصرية، وهناك

المقتنع بحاله الذي لا يرى شيئا ولا يفهم شيئا ولا يبحث عن شيء فهو قانع بدفع ضريبته... إننا حتى في علاقاتنا الودية والعائلية نعيش في وسط من أجناس متعددة، ومتأثر بثقافات مختلفة" ³⁰، فالثقافة بهذا تغدو متعدد ثقافات لا رابط بينهما.

6.6- الحرمان الاجتماعي:

يتجلى هذا المظهر من مظاهر التخلف في عدم قدرة المجتمع على تقديم الضمانات الاجتماعية للفرد المنتمي إليه بما يتيح له أن يحقق وجوده ويضمن سعادته. ويترجم هذا الحرمان الاجتماعي في صور مختلفة عندما لا يجد الإنسان العمل الذي يشغله، والغذاء الذي ينمي جسمه، ووسائل الصحة والتعليم، فالإنسان الذي لا يكون مجتمعه مجتمع حضارة معرض للحرمان من الضمانات الاجتماعية. والحقيقة هي أن هذا الحرمان الاجتماعي هو مظهر ونتيجة لانعدام الفعالية في المجتمع حينما يقصر إنتاجه الاجتماعي عن تلبية متطلبات الحياة الكريمة لأفراده، لأن محصلة كل جهد فردي هي دون الحد الذي يحقق المصلحة العامة، بما يمكن أن يعود عليه في الأخير في صورة ضمانات تحقق سعادته ورفاهيته. وبالإضافة إلى هذه المظاهر هناك أخرى تكشف عن حالة العطالة والتخلف التي يخبرها المجتمع الخارج من دورة حضارته، سواء على الصعيد الثقافي* أم الاجتماعي أم الاقتصادي.

- خلاصة:

لعل العرض السابق الذي حاولنا من خلاله تتبع جهود مالك بن نبي التنظيرية في حقل التخلف قد كشف لنا عن نظرة هذا المفكر الفذ لجوانب هذه المشكلة الإنسانية؛ من حيث طبيعتها وأسبابها ومظاهرها وأبعادها المختلفة. وقراءة تراثه الفكري وإسهاماته التنظيرية التي قدمها في حقل التخلف ونحن نحتفل بذكرى ميلاده المئوية تشكل خطوة هامة للاطلاع على إبداعاته في هذا الميدان، لقد انطلقت جهوده في دراسة ظاهرة التخلف من الواقع العالم ثالثي ومن ملاساته وحيثياته، فشككت تلخيصا وصياغة معرفية لأزمته، تلك التي يراها أزمة تاريخية أخرجت المجتمع من دورة حضارته لتقوده إلى مهاوي التخلف والانحطاط، فظاهرة التخلف حسبها هي مشكلة حضارة أولا وأخيرا ولا يمكن لأي مجتمع العودة إلى حالة الحضارة من جديد واستعادة تقدمه إلا بفهم شروطها وآلياتها. وما أحوج مجتمعاتنا اليوم وهي تخرج بعد فترة من التجريب التنموي بمديونية حضارية ثقيلة ونمو لتخلفها لتعتنق بدائل تنموية جديدة -قد تكون لها مضاعفاتها السلبية على واقعنا ومستقبلنا- أن تلتفت إلى هذه الأفكار التي لا تزال منفية لم يتحقق لها ما تحقق لغيرها من الاحتفاء والتطبيق. حقا لقد بقيت كثير من أفكار هذا المفكر الفذ حيية كتنبه فحصل لها مثل ما حصل لتراث ابن خلدون، لم ننتبه إليه إلا عندما ثمنه الآخر واعترف بقيمته.

الهوامش:

- (1) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص40 وما بعدها.
- (*) أنظر دراستنا: الطاهر سعود، "مشكلة الثقافة والحضارة في فكر مالك بن نبي"، مجلة الكلمة، بيروت: العدد 42، (شتاء 2004)، ص 46.
- (2) مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص49.
- (3) مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص43.
- (4) مالك بن نبي، تأملات، ص51.
- (5) المرجع نفسه، ص61.
- (6) مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص70.
- (7) المرجع نفسه، ص78.
- (8) مالك بن نبي، تأملات، ص118.
- (9) المرجع نفسه، ص52.
- (10) مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، ص46.
- (11) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص36.
- (*) أنظر: الطاهر سعود، مرجع سابق، ص ص 35-64.
- (12) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص9.
- (13) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص31.
- (*) أنظر كتاب: جودت سعيد، الإنسان حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً، ط1، (الجزائر: المطبعة العربية بغرداية، 1990). وكلمة كل مشتقة من قوله تعالى "وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ" سورة النحل الآية 76.
- (14) مالك بن نبي، تأملات، ص36.
- (**) أنظر لمزيد اطلاع: مالك بن نبي، المسلم في عالم الاقتصاد، وأيضاً: فكرة الأفروآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ.
- (15) مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص70.
- (16) مالك بن نبي، المرجع والصفحة نفسهما.
- (17) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص9.
- (18) مالك بن نبي، تأملات، ص37.
- (19) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص96.
- (20) مالك بن نبي، المرجع نفسه، ص93.
- (*) أنظر: مالك بن نبي، في مهب المعركة، ص 40 وما بعدها.
- (21) مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، ص45.
- (22) المرجع نفسه، ص45، ص47.
- (23) مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، ص79.
- (24) مالك بن نبي، تأملات، ص166.
- (25) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ص79.
- (26) مالك بن نبي، المرجع والصفحة نفسهما.
- (27) مالك بن نبي، تأملات، ص 167.
- (28) علي القريشي، التغيير الاجتماعي عند مالك بن نبي، ص184.
- (29) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار، ص 141.
- (30) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص ص 157-158.
- (*) أنظر في هذا الإطار علي القريشي، مرجع سابق، ص ص 147-185.